الفصل السادس

ماذا تقول العلوم الاجتماعية في الغرب ؟

لقد حاول بعض العلماء الغربيين الوصول إلى أسباب علمية لمكانة الرجل والمرأة في الأسرة والمجتمع. وكان فردريك انجلز[1](زميل كارل ماركس)[2] من أوائل الذين قدموا نظرية في هذا الصدد.

قال إنجلز في كتابه أصل الأسرة[3]: إن ما نشاهده اليوم من تكوين للأسرة فيه هيمنة للرجل. وتكوين المجتمع أيضا فيه هيمنة للرجل. وهذان الوضعان تطورا مع وضع آخر إذ تسلسلت الأوضاع كالآتي:

أولا: وضع بدائي كانت فيه الملكية شائعة بين جميع الناس ولا وجود لملكية خاصة ولا لطبقات اجتماعية. وفي تلك الحالة كان المواليد لا ينتسبون لآبائهم بل لأمهاتهم أي : أنّ الانتساب قائم على أساس الأم (Matrileanial) ومع وجود هذا النوع من الانتساب كانت المرأة (الأم) مهيمنة على الأسرة وعلى النظام الاجتماعي (Matriarchy).

(1) Friedrich Engels (28 Nov 1820-5 Aug 1895) فيلسوف ألماني مؤسس الشيوعية مع ماركس، كتب الجزء الثاني والثالث من (رأس المال).

(2) Karl Marx (5 May 1818- 14 March 1883)

(3) Engles. F. , Der Uspraug dec Familie (The origin of the Family) 1884.

ثانيا: ثم تطور النظام الاجتماعي بحيث انتهى شيوع الثروة بين الناس وبدأت الملكية الخاصة. ومع الملكية الخاصة بدأ ظهور الطبقات الاجتماعية. ومع الملكية الخاصة اختفى نظام الانتساب للأم ليحل محله نظام الانتساب للأب (Patrileanial). وكذلك ظهر نظام هيمنة الرجل (الأب) على الأسرة وعلى المجتمع (Patriarchy). قال انجلز: إنّ هيمنة الرجل على الأسرة وعلى المجتمع ظاهرة اقترنت بالملكية الخاصة وبظهور الطبقات وسوف تختفي معها.

وقال إننا إذا استعرضنا المجتمعات الإنسانية المعاصرة لنا سنجد أنّ بعضها مازال يمارس تقاليد فيها الانتساب للام (Matrileanial) وتقاليد فيها يقيم الزوجان في بداية زواجهما في منزل الأم (Matrilocal) وهذه التقاليد كلها من مخلفات العهود القديمة التي كانت فيها المرأة مهيمنة على الأسرة وعلى المجتمع.

هيمنة الرجل:

لقد تصدى لهذه الآراء جماعة من علماء الاجتماع نذكر منهم العالم جورج بيتر مردوك في كتابه (النظم الاجتماعية) قال هذا المؤلف:

أولا: هنالك عدد كبير من المجتمعات التي تقوم على أساس هيمنة الرجل على الأسرة وعلى المجتمع ولا يوجد دليل على أنّ هذا الحال سبقه نظام الانتساب للأم.

ثانيا: إنّ الانتساب للأم موجود في كثير من المجتمعات التي تمارس الملكية الخاصة والتي تقوم فيها الطبقات الاجتماعية وبعض تلك المجتمعات مجتمعات إقطاعية.

ثالثا: إن جميع المجتمعات التي عرفناها سواء كان الانتساب فيها للأم أو للأب مجتمعات تقوم على أساس هيمنة الرجل على الأسرة وعلى المجتمع »[1].

(1) Social Structure, Murdock, George P. عالم أنثروبولوجيا أمريكي. والكتاب دراسة مقارنة لنظم الوراثة Kinship..

إنّ أدب الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) الموجود الآن يوضح أنّ العلماء في هذا المجال اكتشفوا وجود أربعة ألف مجتمعا إنسانيا متميز الخصال. ويوضح هذا الأدب أنهم قد درسوا من بين هذا العدد الهائل مائتين وألف مجتمع إنساني.

لقد أسفرت هذه الدراسة عن الحقائق الآتية:

كل هذه المجتمعات بلا استثناء اشتملت على المؤسسات والممارسات الآتية:

أ- على ممارسة نوع من الزواج.

ب- على إقامة نوع من مؤسسة الأسرة.

ج- على ممارسة نوع من التحريم المتشدد لنكاح الأقربين (نكاح الأخوة أو الآباء وبناتهم وهلم جرا).

د- كل المجتمعات توجد فيها ظاهرة هيمنة الرجل على الأسرة وعلى المجتمع

هـ- كل المجتمعات توجد فيها ظاهرة تولى الرجال لأغلبية المناصب العليا في المجتمع.

استنادا على تلك الدراسات المستفيضة لخصت الأستاذة مارجريت ميد[1] الموقف بقولها: «في كل المجتمعات التي درست كان الرجال هم المسئولين عن توجيه الأمور في المجتمع وكانوا أيضا هم أصحاب الكلمة الأخيرة في المنزل».

هذه الحقيقة اطردت في كل المجتمعات:

- في البدائية البسيطة.

- وفي الزراعية الإقطاعية.

- وفي الصناعية الرأسمالية.

(1) مارجريت ميد (١٩٠١- ١٩٧٨م) عالمة أنثروبولوجيا أمريكية.

- وفي الصناعية التي قامت فيها نظم ثورية وأعلنت بقوة مبدأ المساواة بين الجنسين.

وللاستدلال على هذا نسوق الأرقام الآتية وهي مستقاة من إحصائيات عام ١٩٧٩م:

ففي الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن توجد نساء في مجلس الشيوخ. والمدن ذات العدد السكاني الكبير (٢٥ ألف فما فوق) النساء يشكلن ١ ٪ من عمدها. والنساء يشكلن أقل من ٢ ٪ من صناع القرار في الحكومة الفدرالية. وهن يشكلن ٣٪ من عضوية مجلس النواب، ويشكلن ٥ ٪ من عضوية مجالس التشريع الإقليمية.

وفي السويد كان كل الوزراء وعددهم ١٢ وزيرا من الرجال.

وفي كوبا كان كل أعضاء المكتب السياسي وعددهم ١٥ عضوا من الرجال ومجلس الوزراء عدده ٢١ وزيرا منهم ٢٠ من الرجال.

وفي الصين كان هنالك ١٤ وزيرا ١٣ منهم رجال. وأعضاء مجلس الدولة وعددهم ١٧ شخصا كانوا كلهم من الرجال. ورؤساء الوزارات الإداريون عددهم ٦٧ شخصا كانوا من الرجال وكل أعضاء المكتب السياسي إلا واحدة كانوا من الرجال.

وفي الاتحاد السوفيتي (السابق) كان أكثر من ٩٥ ٪ من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي رجال.

وفي تلك الحالات التي تولت امرأة الرئاسة العليا كمارغريت تاتشر في بريطانيا وأنديرا غاندي في الهند فقد كان غالبية وزرائها ورؤساء المصالح وقادة المجتمع من الرجال.

النتيجة: هذه المجتمعات الإنسانية البدائية والمتطورة. الرأسمالية، والاشتراكية، تسود فيها ظاهرة هيمنة الرجال في الحياة الخاصة والعامة وهي ظاهرة متكررة بلا استثناء حتى في المجتمعات التي تعلن المساواة التامة بين الجنسين وتسعى لتحقيقها.

هذه النتيجة لمستها وأشارت إليها واشتكت منها عدة من عالمات الاجتماع الغربيات كما ورد في كتب مثل:

- عالم الرجال، ومكان المرأة فيه ، بقلم اليزابيث جينواي[1] .
- المرأة والمصلحة العامة - بقلم جسي برنارد[2].

مكان المرأة: خيارات وحدود في الحياة المهنية، بقلم سنثيا ابستاين[3].

هؤلاء الكاتبات يشرن إلى هيمنة الرجال على الحياة الخاصة والعامة في المجتمعات الأوروبية والأمريكية المتطورة. ويقلن: إنّ هذه المجتمعات تربي أولادها وبناتها على خصال معينة بحيث يكتسب الأولاد خصالا رجالية والبنات خصالا نسائية. ويقلن: إن الواقع الاقتصادي والاجتماعي الذي تواجهه المرأة في الحياة هو أنّ غالبية الساسة والقادة ورجال الأعمال ورؤساء المصالح هم من الرجال.

---

(1) Janeway, Elizabeth Man`s World, Woman`s Place: A study in Social Mythology الناشرون دلتا Delta 1971.

(2) Bernard, Jessie Shirley (June 8,1903-Oct. 6,1996) عالمة اجتماع أمريكية أطلق عليها لقب الأم المؤسسة لعلم الاجتماع. من مؤسسات الحركة الأنثوية الحديثة Modern Feminism.

(3) Epstein, Cynthia Fushs: Woman's Place: Options and Limits in Professional Careers ١٩٧٠، مطبعة جامعة كاليفورنيا.

لماذا هذا ؟

رأي الحركة الأنثوية Feminist Movement:

هذا السؤال تطرقت للإجابة عليه كتب مثل:

«السياسة والجنس» بقلم كيت مليت[1]، «النسوان الخصيان» بقلم جيرمين قرير[2]، و«جدل الجنس» بقلم شولامث فيرستون[3]. وخلاصة رأي هؤلاء الكاتبات (وجميعهن ينتسبن إلى الحركة الأنثوية في الغرب) هي أنّ شخصية الرجل والمرأة مبنية على التربية الاجتماعية وما يصحبها من توجيه منذ الصغر. وهذه لتربية قائمة على برنامج خاص وزعت الخصال بموجبه على نوعين. نوع رجالي ونوع نسائي. هذا التوزيع توزيع تعسفي لا يقوم على أساس بل فرضه سلطان الرجال مما جعل البرنامج استكانة واتباعًا. ونتيجة لهذه التربية يشب الأولاد ليصبحوا رجالا متحلين بخصال رجالية معينة. وتشب البنات ليصبحن نساء متسمات

(1) Katherine Murry Millett (14 Sep 1934-): Sexual Politics كاتبة وفنانة أمريكية من رموز الحركة الأنثوية Feminist، السياسة والجنس كتابها الأول.

(2) Germaine Greer: The Female Eunuch, 1970 كاتبة إنجليزية أسترالية المولد في ٢٩ يناير ١٩٣٩، تناصر الحرية الجنسية للنساء، و تذهب في كتابها إلى أن سلبية النساء في الجنس خاصية متعلقة بإخصاء تم عمله لهن تاريخيا وعبر النساء أنفسهن. يعد كتابها هذا من أهم كتب الحركة الأنثوية الحديثة في العالم، وقد اختير ثاني أهم كتاب في أستراليا، واختيرت بسببه الكاتبة كخامس أهم شخصية في أستراليا عبر التاريخ. أصدرت مؤخرا في عام ١٩٩٩م كتابها: المرأة الكاملة The Whole Woman وذلك كما وصفت «لتجديد أفكارها بين النساء الناشئات، وتذكيرهن أن كل الرجال أوغاد»!.

(3) Shaulmith Firestore: the Dialectic of Sex: The Case of the Feminist Revolution, 1970 كاتبة أمريكية من وائل الانثويات المتطرفات. في هذا الكتاب أصرت على أن الحب ينقص من النساء لأنه يخلق علاقة حميمة بينهن وبين الرجال (مضطهدوهن الأساسيون).

بخصال نسائية معينة فالجميع اكتسبوا خصالهم نتيجة تربية معينة هي المسؤولة عن الفوارق المشاهدة في سلوك الرجال والنساء.

تقول السيدة جرمين قرير: إننا لا نستطيع أن نعرف ما إذا كانت هنالك عوامل فيسيولوجية تتسبب في الفوارق المشاهدة بين الرجال والنساء. ولن نعرف ذلك إلا إذا استطعنا فك الطلاسم الوراثية وقراءة الطلسم الوراثي نفسه (DNA) عندما نقرأ الطلسم الوراثي سنعرف الخصال التي تطبع على المرأة وراثيا ونتمكن من معرفة هل تستند خصال الرجال والنساء على أساس وراثي أم لا ؟[1].

وتقول السيدة شولامت فيرستون: لا يوجد اختلاف حقيقي بين الرجل والمرأة إلا ذلك الناشئ من الوظيفة التناسلية[2].

هؤلاء الكاتبات يجمعن على أنّ التمييز المشاهد بين الجنسين إنّما حدث نتيجة لعوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية وأنّه تمييز مكتسب غرسته تربية معينة.

وعلى نمط هذه الآراء رأي رابع قالت به كاتبة رابعة هي جوليت متشل في كتابها: النساء أطول الثورات.[3].

قالت الكاتبة: إنّ هيمنة الرجل المشاهدة في الحياة الخاصة والعامة لا تقوم على أساس طبيعي ، ولكنها نتيجة حتمية لمؤسسة الأسرة. قالت: إنّ الأسرة وهي

---

(1)في العقد الأخير من القرن العشرين عمل المشروع الجينومي الإنساني Human Genome Project على كشف الخريطة الأساسية للطلاسم الوراثية الإنسانية وتوصل إلى اكتشافات وصفت بأنها «الفتح العلمي للقرن بل ربما أبد الدهر» وفي ١٤ مارس ٢٠٠٠ م أعلن الرئيس الأمريكي «جينها» كلنتون ورئيس الوزراء البريطاني بلير أن تلك الاكتشافات ستتاح للجميع في عام ٢٠٠٣م.

(2)فايرستون، مرجع سابق.

(3) Mitchell, Juliet Women: The Longest Revolution: Essays on Feminism, Literature, and psychoanalysis. ١٩٨٤ Virago لندن.

مصدر هذه الهيمنة الجائرة نظام عرضي يمكن التخلص منه والتخلص معه من هيمنة الرجال.

رأي هؤلاء الكاتبات إذن هو أنّ ظاهرة الهيمنة الرجالية على الحياة الخاصة والعامة ظاهرة مكتسبة لا تستند إلى عوامل وراثية ولا إلى ضرورات طبيعية.

رأي مخالف:

هنالك رد آخر على السؤال عن أسباب هيمنة الرجال. ورد هذا الرد في كتاب هيمنة الذكران بقلم ستيفن جولدبرج [1]. قال هذا الكاتب: إنّ سلطان الآباء على الحياة الاجتماعية (الباتريـاركي) وهيمنة الرجال على الحياة الخاصة والعامة، واستيلاء الرجال على غالبية الوظائف والمناصب ذات الشأن في المجتمع، ظواهر اجتماعية لحقيقة فسيولوجية إذ إن تكوين الرجل الفسيولوجي يثير فيه انفعالات معينة وحيثما أحاط بالرجل نظام سلطان هرمي. أو عرضت له وظائف مرموقة، أو أحاطت به أنثى فإن هذه العوامل تستهضه وتستثيره وتجعله:

تتولد فيه مشاعر التنافس ويزيد فيه التطلع للتفوق والهيمنة.

يؤثر الهيمنة ويضحي في سبيل الحصول عليها بالمال وبراحة البال وبالملذات.

هذه النزعة التي تتحكم في سلوك الرجال تقوم على عوامل طبيعية عائدة إلى تكوين الرجل الغددي والعصبي.

---

(1) Goldberg, Steven: Male Dominance: The Inevitability of Patriarchy: London, Abacus 1970 وقد أصدر نفس الكاتب كتابا آخر في ١٩٩٣ في ذات الموضوع بعنوان: Why Men Rule: A theory of Male Dominance لماذا يحكم الرجال، نظرية هيمنة الرجال الكاتب رئيس شعبة علم الاجتماع في جامعة مدينة نيويورك. في الكتاب الأخير ينتقد ما وصف بأنه «تشوهات علوم النوع Gender التي صارت البقرة المقدسة أكاديميا».

قال الكاتب: في كل الثديات [1] تقترن الهيمنة بالذكر وهذا يعني أنّ هذه الحقيقة تنطبق على كل الرئيسيات[2].

هنالك ٣٢ فصيلة من الرئيسيات بما في ذلك الإنسان.

من بين ال٣٢ فصيلة توجد ثلاثة فصائل شاذة إذ تقترن الهيمنة فيها بالأنثى لا بالذكر. تلك الفصائل الثلاثة هي المسماة: ساقونيوس، واوتس، وكاليسيبس (Saguinus, Aotus and Callicebus) وفي هذه الفصائل وحدها من بين كل الفصائل في هذا القسم من الحيوانات نجد ظاهرتين هما: الأنثى أكبر حجما من الذكر. والذكر هو الذي يتعهد حضانة الصغار. (لكن طبعا الأنثى هي التي ترضعهم) هكذا توجد في هذه الفصائل الثلاثة أمور ملفتة للنظر: الإناث هي المهيمنة والإناث هي الأكبر حجما.

يستشهد الكاتب بوجود تجارب معملية تدل على أنّه بين الفئران وثديات أخرى، فإن سلوك الذكران عائد لإفرازات هرمون[3] الذكورة من خصيتيها. وأنّ لهذا الهرمون واسمه تستوسترون أثرا في سلوك الحيوان الذكر وفى نزعته للهيمنة. ومن البراهين على هذا القول أنّ إناث الفئران إذا حقنت بكمية من التستوسترون في طفولتها فإن ذلك يؤثر في سلوكها ويجعلها تنزع نحو الهيمنة.

قال العالم الذي أجرى هذه الاختبارات على الفئران واسمه دكتور د. أ. إدواردز Dr. D.A. Edwards : إنّ دراسته توضح إن نزعة التعدي والهيمنة التي تظهر

(1) الثدييات هي الحيوانات ذوات الثدي وهي قسم من أقسام مملكة الحيوان.

(2) الرئيسيات هي فرع من الثدييات يشمل القرود بأنواعها.

(3) الهرمونات واحدها هرمون وهي إفرازات تفرزها غدد تسمى الغدد الصماء لأنها لا تتصل بقنوات بل تفرز إفرازاتها في الدم مباشرة وإفرازاتها تتحكم في كثير من وظائف الجسم.

في سلوك الفئران تعود قطعا لإفرازات الخصيتين.

يقول مؤلف الكتاب المشار إليه: إنّ نتائج أبحاث علماء الغدد الصماء، ونتائج علماء النفس تؤكد أنّ نزعة الهيمنة المشاهدة في سلوك الذكور تعود إلى تأثر أدمغتها بهرمون الذكورة في مرحلتين هما مرحلة التكوين (وهي جنين) ومرحلة البلوغ، فالهيمنة الواضحة في سلوك الذكور من آثار الهرمونات عليها.

يقول المؤلف وفي مؤتمر النيوروبيولوجي في بارهاربور أوضح الدكتور ريسمان Dr. Raisman أنّ التستوسترون (أي الهرمون الذي تفرزه الخصيتان) ذو تأثير على الدماغ يمكن أن يشاهد بالعين في مناطق معينة من الدماغ[1].

هذه التجارب التي تؤكد ظهور مؤثرات مشاهدة في دماغ الفئران تحدثها هرمونات الذكورة أجريت على أدمغة الفئران ولكنها لم تجر بعد على أدمغة الإنسان. ولكن وجود هذه المؤثرات مؤشر هام لما سيكشف من وجودها في دماغ الإنسان أيضا.

النتيجة المستخلصة: من هذه الدراسات والمشاهدات والتجارب هي أنّ سلوك الرجل الذي ينزع بطبعه نحو التعدي والهيمنة صادر من مؤثرات هرمونية يتأثر بها دماغ الذكر في مرحلة التكوين (أي وهو جنين) ويزيد التأثر بها في مرحلة البلوغ هذه قاعدة.

قال المؤلف: ربما وجدنا استثناءات من هذه القاعدة فبعض النساء ينزعن نحو التعدي والهيمنة أكثر من بعض الرجال، وبعضهن توجد في أجسامهن كميات من هرمون التستوسترون أكبر مما يوجد في أجسام بعض الرجال، ولكن هذه

(1) انظر: جوفري رايسمان وبولين فيلد. المؤثرات الجنسية في منطقة معينة من دماغ الفأر. مجلة العلوم، أغسطس ١٩٧١.

الاستثناءات لا تنفي القاعدة العامة: فالطول مثلا خصلة موروثة، والرجال بصفة عامة أطول من النساء ولكن هنالك نساء أطول من بعض الرجال، ولكن هذه الحالات الاستثنائية لا تنفي القاعدة العامة وهي أن الرجال أطول من النساء.

يقول المؤلف: إنّ نزعة التعدي والهيمنة لا تتوقف على الهرمون وحده. فهناك عوامل تربوية وبيئية تؤثر عليها، ولكن إذا تساوت هذه العوامل التربوية والبيئية فإنّ أثر الهرمون يظهر ولذلك يميل الذكور عادة نحو التعدي والهيمنة.

يقول المؤلف: رغم اختلاف البيئات من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والمستويات التكنولوجية فإنّ الرجال يهيمنون على الأسرة والمجتمع ويحتلون الوظائف العليا[1].

هذه ظاهرة مطردة وإن اختلفت نظرة الرأي العام في أوربا وأمريكا إليها ففي الماضي كان الرأي العام في أوربا وأمريكا يرتاح لتلك النظرة ويؤيدها بينما كان يستحي من الخوض في الممارسات الجنسية.

أما الآن فان الرأي العام في أوربا وأمريكا ينتقد نزعة الهيمنة والتعدي ويشجع الخوض في الممارسات الجنسية. نظرة المجتمع تغيرت ولكن الحقائق بقيت على ما هي عليه.

خلاصة: كل المجتمعات الإنسانية تظهر هيمنة الرجال على الأسرة وعلى المجتمع وهذه الظاهرة يفسرها بعض العلماء بإرجاعها للتركيب العصبي والغددي للرجال. ويفسرها آخرون بإرجاعها إلى عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية يغرس المجتمع بذورها عن طريق التربية في أجياله المتعاقبة من الأولاد والبنات.

(1) Goldberg، مرجع سابق.